تعلمت من يوسف عليه السلام

تلخيص المحاضرة الثامنة

من السجن الى القصر

- **المقدمة**
- **يوسف عليه السلام** قدَّم درسًا عظيمًا في الإحسان والموازنة بين المصالح، حين لم يعاتب ساقي الملك على نسيانه له في السجن، بل بادر بتفسير رؤيا الملك بكل صدقٍ وأمانة، بل وأضاف عليها نصيحةً من وحي الله: { ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ }
- **لقد أدرك يوسف عليه السلام** أن الرؤيا ليست أمرًا يحتمل التأجيل، بل هي نذير كارثةٍ تهدد حياة الملايين، وكان يمكنه أن يشترط خروجه أولًا قبل الإفصاح عن تفسيرها، لكنه بميزان العقل والحكمة أيقن أن الأولوية لإنقاذ الناس، حتى وإن استمر الظلم الواقع عليه. فالمصلحون لا يسعون للانتقام، بل يعملون على درء المفاسد وتحقيق الخير للناس.
- **ولو كان مكانه شخص آخر**، لربما قال: **"ليجوعوا، وليهلكوا، فقد ظلموني"!**، لكن هذه ليست نفسية الأنبياء. فالأنبياء لا يحملون ضغينةً ولا يردّون الظلم بظلم، بل يتجاوزون لأجل مصلحة الأمة. كما فعل النبي ﷺ حين عُرض عليه أن يُطبق على أهل الطائف الجبال، فرفض قائلًا: **"لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من يوحّد الله تعالى"**.
- **وهذا يذكرنا بآفةٍ منتشرة**، حيث يتخذ البعض من الظلم الذي وقع عليهم مبررًا لإفساد مجتمعاتهم، فيتحولون إلى أدواتٍ للهدم بدلًا من البناء، فتجدهم يدعون لتعطيل العمل، أو الإضرار بالاقتصاد، متوهمين أنهم بذلك ينتقمون من الظالم، بينما المتضرر الحقيقي هم الناس الأبرياء، الذين قد يكونون مظلومين مثلهم.
- **إن يوسف عليه السلام** لو فكر بهذه العقلية، لترك المجاعة تضرب البلاد، لكنه كان يعلم أن الملوك والحكام سيجدون لأنفسهم المخرج، بينما الضحايا الحقيقيون سيكونون الفقراء والمحتاجين. وهكذا، فإن الانتقام الأعمى لا يصيب الظالم، بل يزيد من معاناة المظلومين.

- والأسوأ من ذلك هم أصحاب "المعادلة الصفرية"، الذين يقولون: "إما أن نحيا برفاهية، أو نهلك جميعًا!". هؤلاء لا يفكرون في العواقب، بل يسعون للهدم حتى لو كان الثمن حياة الأبرياء.
- أما المصلحون الحقيقيون، فهم الذين يوازنون بين الأمور، فيدركون أن التضحية بظلمٍ شخصي، أهون من السماح بمصيبةٍ تحلّ بالناس جميعًا، وهذا هو نهج الأنبياء، ونهج كل صاحب عقلٍ رشيد.
- هناك من يحمل في داخله عقلية المعادلة الصفرية، عقلية خطيرة تتلخص في: "إما أن أعيش كما أريد، أو لا يعيش أحد!". هؤلاء لا يتورعون عن إيذاء الأبرياء، بل يرون في معاناة الآخرين نوعًا من التعويض عن آلامهم الشخصية، وكأن انتقامهم الأعمى سيعيد لهم حقوقهم المسلوبة. والأسوأ أن بعضهم يدرك تمامًا أن تصرفاته ستطال الظالم والبريء على حد سواء، لكنه لا يكترث، بل يصرّ على نشر الفوضى، ظنًا منه أنه إن لم يكن له نصيب من النجاة، فلا أحد يستحقها.
- في أزمنة الفتن، نحن بحاجة إلى عقول متزنة، قادرة على وزن الأمور بعدل وحكمة، لا تنساق خلف العواطف، بل تحكم بمنطق المصالح والمفاسد. حتى لو وقع الإنسان في ظلم، فإن التفكير العادل يقتضي أن لا يظلم غيره، وأن يبحث عن حلول ترفع عنه الضرر دون أن تُلحق الأذى بالآخرين. وكثيرًا ما يكون الصبر هو الخيار الأجدى، مع السعي الحكيم لاستعادة الحقوق، دون الانجراف إلى ردود أفعال تزيد المشكلة تعقيدًا، وتجعل المظلوم يتحول – دون أن يدري – إلى ظالم لغيره.
- وهذا ما جسّده يوسف عليه السلام بأخلاق الأنبياء، حين اختار مصلحة الأمة على مصلحته الشخصية، فقدم تفسير رؤيا الملك مجانًا، دون شرط أو قيد، رغم أنه كان يدرك أن ذلك قد يُبقيه في السجن. لم يشترط الخروج أولًا، ولم يفاوض على حريته، بل آثر إنقاذ الناس من مجاعةٍ وشيكة، حتى لو استفاد من ذلك الظالمون. فالأنبياء يفكرون بعقليةٍ أوسع، لا يهمهم من سينسب الفضل، بقدر ما يهمهم تحقيق الخير ونشر النفع بين الناس.

- لكن الملك لم يكن ساذجًا. حين سمع التفسير، أدرك أن ساقي الملك لا يمكن أن يكون صاحب هذا الكلام العميق، خصوصًا أن الأخير أضاف على الرؤيا جزءًا لم يكن فيها أصلًا: { ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ } . فمن أين أتى به؟
- الملك، بحكمته، ضغط على الساقي، وأمره أن يقول الحقيقة. وحين خاف الأخير من العواقب، اضطر للاعتراف بكل شيء، فسمع الملك عن يوسف عليه السلام، وسأل عن قصته، وأعجبه ما سمع. ولم يتردد لحظةً، بل أرسل من فوره ليحضره إليه، إدراكًا لقيمة هذا الرجل العظيم الذي كان مجهولًا في ظلمات السجن، لكنه امتلك الحكمة التي تحتاجها البلاد في هذا الوقت العصيب.
- عندما قال الملك: { ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ } ، لم يكن ذلك مجرد أمر باستدعاء يوسف عليه السلام، بل كان تحقيقًا لإرادة الله في أن يخرج يوسف بأفضل وأكرم صورة، لا بشفاعة أحد، بل بأمر مباشر من الملك نفسه، ليكون خروجه اعترافًا بمكانته، لا مجرد منحة من شخص أو وساطة من أحد. لكن الأعجب من ذلك، أن يوسف عليه السلام رفض هذا العرض!
- لم يكن رفضه عنادًا، بل كان موقفًا يعكس كرامته وإيمانه العميق بالعدل. لم يشأ أن يخرج وكأنه مُدان نال العفو بسبب إحسانه في تفسير الرؤى، بل أراد أن يثبت براءته قبل أن يغادر السجن، حتى لا تظل نظرات الشك تلاحقه، وحتى لا يُنظر إليه كمتهم نال حريته بفضل الملك، بل كإنسان بريء يستحقها بجدارة. لقد كان يوسف عليه السلام يدرك أن العدل لا يتجزأ، وأن الحقيقة يجب أن تظهر، لذا أصر على التحقيق في قضيته أولًا قبل أن يخرج.
- كانت فترة السجن بالنسبة له محطة إيمانية عظيمة، لم تكن عقوبة، بل كانت حمايةً له من فتن القصر، وفرصة للزهد والتقرب إلى الله. لقد تحول السجن إلى ملاذ، إلى مكان جعله قريبًا من الله أكثر من أي وقت مضى، حتى صار يرى الدنيا بحقيقتها الزائلة. القصر والكوخ، الحرية والسجن، كلها أصبحت عنده سواء، لأنه وجد كنزه الحقيقي: القرب من الله والطمأنينة في ذكره. لم يعد يشغله متى سيخرج، بل كيف سيخرج، وبأي صورة سيُعيد الله له حقه.
- وحين رفض يوسف الخروج، أصاب الملك حالة من الانبهار الشديد. لم يكن معتادًا على هذه النوعية من الأشخاص، فالبلاط الملكي مليء بمن يسعون وراء المصالح، حيث الجميع يقـــدم

خدمات مقابل ثمن، أما يوسف فقد كان مختلفًا تمامًا. رجل يعطي دون أن يطلب شيئًا، زاهد في الدنيا، غني بنفسه عن الناس، لا يخشى الملك ولا يتودد إليه طمعًا في مكافأة. هذا جعل الملك يرغب في رؤيته، ليس فقط لمعرفة سر تفسير الرؤى، بل لاكتشاف سر هذه الشخصية العجيبة.

- وعندما التقى به، وجد أمامه رجلاً حكيمًا، قويًا، ثابتًا، لا يخاف، ولا يتملق، ولا يتغير موقفه طمعًا أو خوفًا. هنا أدرك الملك قيمته الحقيقية، فقال له بكل احترام وتقدير: { إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } ، أي أنك اليوم ذو مكانة عظيمة عندنا، وأنت رجل أمين، نستطيع أن نأتمنك على أمرٍ كبير. وهكذا، خرج يوسف عليه السلام من السجن ليس فقط بريئًا، بل عزيزًا مكرمًا، واستعد ليبدأ رحلته الجديدة في إدارة شؤون البلاد.

حكمة يوسف عليه السلام في إثبات براءته وتمكينه في الملك

- عندما أمر الملك قائلاً: { ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ } ، لم يكن يدرك أنه أمام شخصية استثنائية لن تخرج من السجن لمجرد أوامر ملكية، بل وفق شروط واضحة تنبع من إيمانها العميق بالحق والعدالة. فالملك، الذي لم يكن قد رأى يوسف عليه السلام بعد، أصيب بحالة من الانبهار التام لمجرد سماعه عنه من ساقي الخمر، الذي أخبره عن إحسان يوسف في السجن، وعن قدرته الفريدة في تأويل الرؤى. العجيب أن هذا الانبهار جاء دون أن يعرف الملك شيئًا عن شكل يوسف أو جماله أو عظمته الأخلاقية، فما بالك بشوق المؤمنين إلى رؤيته، وقد عرفوا قدره عند الله، واطلعوا على قصته وإحسانه وعفته!
- لكن يوسف عليه السلام لم يقبل بالخروج من السجن إلا بعد إثبات براءته، فأرسل إلى الملك سؤالًا ذكيًا وحكيمًا: { ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ } . تأمل في دقة الصياغة، لم يقل: " اسأل النسوة "، بل قال: " ما بال النسوة "، ليضع الملك أمام مفاجأة لم يكن يعلم عنها شيئًا! فجأة، يكتشف الملك أن حادثة غريبة حدثت في قصره، ولم تصل إليه من قبل: نساء قطعن أيديهن! فكيف لم يعرف عنها؟! وأي ملك يسمع عن أمر خطير كهذا في مملكته، ولم يكن لديه أدنى علم به، سيشعر بضرورة التحري والبحث فورًا.

- يوسف لم يختر الحديث عن حادثة المراودة، بل ركز على مشهد تقطيع الأيدي، لأنه أمر نادر لا يتكرر، بينما قد يكون الملك على علم بسلوكيات بعض نساء القصر. إضافةً إلى ذلك، كان يوسف حريصًا على عدم الإضرار بسمعة العزيز مباشرةً، فلم يقل: "اسأل عن امرأة العزيز"، بل أشار إلى مشهد مستقل، حتى لا يتمكن العزيز من التدخل أو التغطية على الحقيقة.
- الملك، بذكائه، أدرك خطورة الأمر، ولم يستغرق وقتًا طويلًا لجمع المعلومات. الملوك يملكون أجهزة استخباراتية قادرة على الوصول إلى أي سر، وقد تمكن من معرفة القصة كاملة بسرية تامة، دون أن تشعر بها النسوة أو حتى العزيز نفسه. ثم قام الملك بخطوة ذكية: جمع النسوة أمامه، وبينهن امرأة العزيز، وواجههن مباشرة بالسؤال: { قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ } لاحظ أنه لم يسألهن عن سبب تقطيع الأيدي، بل انتقل مباشرة إلى صلب القضية، لأنه لم يعد بحاجة إلى استفسار، فقد عرف الحقيقة مسبقًا، لكنه أراد اعترافًا رسميًا. لم يكن سؤاله بحثًا عن إجابة، بل كان إقرارًا للحقيقة أمام الجميع.
- هنا وقع الجميع في مأزق، إذ لم يكونوا يعلمون مقدار ما وصل إليه الملك من معلومات، فخافوا من الكذب، واضطروا إلى الاعتراف الفوري، قائلين: { قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ } أي أن يوسف عليه السلام بريء من أي ذنب، بل لم يعرفوا عنه أي سوء قط.
- هذا الاعتراف العلني لم يكن مجرد تبرئة، بل شهادة عظيمة لعصمة يوسف عليه السلام. فالنسوة، وهن شاهدات على ما جرى، لم يستطعن إلا أن يعترفن ببراءته، رغم مرور السنين، مما يدل على أن الأنبياء محفوظون بحكمة الله حتى قبل بعثتهم.
- لقد خرج يوسف عليه السلام من السجن منتصرًا، لا بمنة من أحد، بل باعتراف الجميع ببراءته، وحين رآه الملك، وجد فيه شخصية لم يرَ مثلها من قبل، رجلًا ذا مكانة عظيمة، حكيمًا، زاهدًا، عزيز النفس، فكان قراره النهائي: { إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ }
- أي أنك اليوم ذو مكانة رفيعة لدينا، ونحن نأتمنك على أعظم أمور المملكة. وهكذا، لم يخرج يوسف من السجن فقط، بل خرج ليكون صاحب السلطة والنفوذ، في رحلة قدرها الله له بحكمة عظيمة.

- **الحق يظهر ولو بعد حين:** براءة يوسف عليه السلام وذلّ امرأة العزيز
- وقف الملك مبهورًا باعتراف النسوة، إذ كان أقصى ما يتوقعه أن يبرئن يوسف عليه السلام من تهمة الفاحشة، لكنه تفاجأ باعتراف صريح بأن يوسف لم يقترف أي سوء في حياته قط! وهنا تتجلى رسالة عظيمة: الحرص على السمعة هو درع يحمي الإنسان يوم الحاجة.
- فالسمعة الطيبة لا تُشترى، وإنما تُبنى بالأخلاق والاستقامة، لذا على الشخصيات العامة، والعلماء، والدعاة، وكل مؤثر في المجتمع، أن يكونوا أشد حرصًا في بابين خطيرين: العلاقة بالجنس الآخر والتعامل مع الأموال. فالشائعات في هذين الأمرين تنتشر بسرعة، وتكون سلاحًا لهدم أي شخصية مهما بلغت منزلتها، كما حدث مع النبي ﷺ في حادثة الإفك.

ذكاء الملك في كشف الحقيقة

- لم يواجه الملك امرأة العزيز مباشرة، رغم أنها المتهمة الرئيسية، لأنه قائد سياسي بارع. فهي زوجة وزيره، وكان لا بد أن يكون حديثه دقيقًا. لكنه استطاع بحنكة أن يضعها أمام خيار صعب: الاعتراف أو مواجهة فضيحة أكبر.
- وهنا، انقلب المشهد تمامًا. فبعدما كانت امرأة العزيز تتفاخر سابقًا بمراودتها ليوسف عليه السلام، وقفت اليوم مكسورة، ذليلة، تعترف أمام الجميع: { ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ} (يوسف: ٥١).
- لقد أجبرها موقف الملك، وشهادة النسوة، على الاعتراف بالحقيقة التي حاولت طمسها لسنوات. وهكذا تحقق وعد الله: { إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }، وانكشف كيدها، كما قال تعالى: { وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ } .

العاقبة للمتقين

- تحولت امرأة العزيز من قمة السلطة إلى قمة الذل، بينما كان يوسف عليه السلام في طريقه للعزة والتمكين. وهذا درس لكل إنسان: قد يتأخر ظهور الحق، لكنه لا يُهزم أبدًا. والخائن، مهما طال به الأمد، سينكشف أمره، وسيجد نفسه يردد ـ رغمًا عنه ـ حقيقة طالما كابر في إنكارها.

"من الخيانة إلى الهداية: مشهد تربوي من قصة يوسف عليه السلام"

- في مشهد قرآني من أبلغ مشاهد التوبة والاعتراف، تقف امرأة العزيز بعد طول عنادٍ وكبرياء، تعلن الحقيقة بوضوح: { أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ } (يوسف ٥١) . هي التي كذبت، وهو الذي صدق، والزمان دار دورته، فصار يوسف العزيز بعد أن كان سجينًا، وصارت هي الذليلة بعد أن كانت سيدة القصر. لكنها وقفت ذات يوم، تردد كلماتٍ تهزّ القلوب: "سبحان من جعل العبيد ملوكًا بطاعته، وسبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيته".
- هذا التحول الكبير يكشف لنا كيف يمكن لدعوة مخلصة أن تغيّر القلوب، وكيف أن يوسف عليه السلام، الداعي إلى الله في القصر والسجن، أثّر في نفوسٍ كثيرة حتى وإن لم تؤمن كلها، فبعضها تأثر، وبعضها آمن، وبعضها بقي في الشك. والقرآن يرينا هذا التأثير ببلاغة فريدة.
- ثم نأتي إلى الآيات التي أثارت خلافًا بين المفسرين: من قال هذه الجمل العميقة؟

{ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ } (يوسف ٥٢) { وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ } (يوسف ٥٣)

- الرأي الراجح، والمؤيد بقواعد التفسير، أن القائل هو امرأة العزيز نفسها، لا يوسف عليه السلام، وذلك لأسباب عدة:
- أولًا: مبدأ "الاتصال مقدم على الانفصال"، فالآيات تأتي في سياق واحد، وتتابع الحديث من امرأة العزيز دون فاصل يدل على انتقال الكلام لشخص آخر.
- ثانيًا: لو كان يوسف القائل، فكيف يقول { ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ }؟ ومن يقصد؟ العزيز؟ والعزيز أصلاً لم يشك في يوسف من البداية.
- ثالثًا: لا يُتصور من نبي أن يقول: { إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ } على نفسه، وهو المعصوم.
- ثم نصل إلى القواعد العظيمة التي نطقت بها امرأة العزيز، والتي تُمثل في حد ذاتها دروسًا تربوية وأخلاقية رفيعة:

١- { وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ } – قاعدة تُرعب من خان، وتطمئن من وقع عليه الخيانة، سواء كانت خيانة لله أو للناس.

٢- { وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ} اعتراف بالخطأ، وصدق في التوبة، ونزول عن كبرياء النفس.

٣- { إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ } - إقرار بأن النفس تحتاج رحمة الله كي تستقيم، لا تعصم نفسها بنفسها

٤- { إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ } - الأمل المفتوح لكل من رجع إلى الله.

- ومن هنا نفهم كيف كان القرآن الكريم ربيعًا للقلوب، وسلوى للهموم، ومصدرًا للأمل والتغيير.
- فالقرآن لا يركّز على مشاهد الابتلاء، بل يمر عليها بسرعة – { فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ } ثم يستفيض في الخير والانتصار والتمكين، ليعلّمنا كيف ننسى الأحزان ونتمسك بالأمل، كيف نرى في كل محنة فرصة، وفي كل ظلم طريقًا إلى عزّة.
- **ومن هذه القصة نتعلم:**
  - أن الإنسان إذا ظُلم، فالله سينصره.
  - وإذا خان، فكيده سيُردّ عليه.
  - وإذا تاب، فباب الله مفتوح.
  - وأن الكلمات الصادقة – مثل كلمات يوسف – قد تغيّر قلوبًا، وتنقذ نفوسًا.

فالقرآن حياة، وتدبّره نور، ومن عاش معه، وجد فيه كل الإجابات.

قواعد في إصلاح النفس وهلاك الخائن : تأملات في قصة يوسف عليه السلام

- تتناول الايات وقفتين تربويتين عظيمتين من سورة يوسف، يمكن اعتبارهما قواعد حياتية خالدة في فهم النفس الإنسانية، وفي معرفة مصير الخيانة وسُبل النجاة منها.

أولًا: قاعدة في مصير الخيانة

قال تعالى: { وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ }

- هذه الآية تُقرر حقيقة راسخة: أن الخيانة لا تُثمر، ولا يُبارك فيها، ولا يُعين الله صاحبها، بل يُضل سعيه ويُحبَط عمله.
- إنها بشارة لكل مظلوم، ولكل من تعرض لخيانة، أن كيد الخائن لا يصيب، وأن الله لا يترك الخائنين دون حساب، بل يُجازيهم بمكرهم .

كما قال تعالى: { وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ}

- فلا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، وهذه قاعدة مطمئنة لأهل الإيمان، أن أعداءهم مهما مكروا فلن يُفلحوا.

ثانيًا: قاعدة في إصلاح النفس

- قالت امرأة العزيز بعد رحلة من الخطأ والاعتراف: { وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ }.
- في هذه اللحظة بدأت إرهاصات التوبة والصدق الداخلي، فحين تتوقف النفس عن التبرير، وتبدأ بالاعتراف، تكون هذه هي بداية الإصلاح الحقيقي.
- في بداية القصة، لم تكن امرأة العزيز ترى في فعلها خطأ، كانت تبرر لنفسها: "راودته عن نفسه، الفتنة شديدة، والظروف أقوى"، لكنها في النهاية عرفت الحقيقة وقالت: { وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ }.
- وهنا تظهر خطورة تبرئة النفس؛ فإن أكبر خطر يهدد الإنسان هو أن يرى نفسه دائمًا ضحية، ويُبرر أخطاءه بالظروف أو المحيط، كما تصور ذلك كثير من الأعمال الفنية المعاصرة، حين تبرر الانحرافات بأنها "نتيجة قسوة الأب، أو ضيق الحال، أو الفراغ العاطفي".
- لكن الحقيقة أن كل إنسان مسؤول عن نفسه، وأن الظروف مهما كانت قاسية، فإن النفس التي لا تُجاهد ولا تُراقب، تسقط في الخطأ، وليس العذر في البيئة وحدها.
- يوسف عليه السلام، مثلًا، كان في نفس ظروف امرأة العزيز بل أشد: شاب، أعزب، جميل، بعيد عن أهله، لكن لم يبرر لنفسه، ولم يقع في الحرام.

ولهذا قيل: "أقبح من الذنب تبرير الذنب".

- وهنا تظهر ثلاث حالات للنفس البشرية كما ورد في القرآن الكريم:

١. النفس الأمارة بالسوء: وهي التي تدفع صاحبها للمعصية دومًا، ولا ترى خطأ في ذلك، وهذه حال من لا يُجاهد نفسه.

٢. النفس اللوامة: وهي نفس تُخطئ، لكنها تلوم صاحبها وتؤنبه، فيظل في صراع بين الحق والباطل.

٣. النفس المطمئنة: وهي التي زكاها صاحبها، فصارت مطيعة له، تسير معه بسهولة ويسر نحو الطاعة، كما قال الله: { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }.

السؤال: أين نفسي من هذه النفوس؟"

- إذا كنتَ تجد الطاعات صعبة وتُكابر، فغالبًا نفسك أمارة بالسوء.
- وإذا كنتَ تُجاهد نفسك وتُخطئ أحيانًا، لكنها تلومك، فهذه نفس لوامة.
- أما إن كنتَ تجد الطاعات سهلة، وتُطيع دون صراع، فقد بلغت النفس المطمئنة.

الخلاصة التربوية المهمة:

- لا تُبرئ نفسك، بل حاسبها باستمرار، راجع نواياك وأقوالك وأفعالك، اكتشف عيوبك، وابدأ في معالجتها.
- النفس إن تُركت همجية، أكلت صاحبها، وإن زكاها وجاهدها، ربح دنياه وآخرته.
- فلا تكن كإبليس الذي هلك بسبب الكِبر وعدم مراجعة النفس.
- وابدأ بخطوة صادقة: (وما أبرئ نفسي)، فهي مفتاح كل خير.

ترويض النفس.. بين مجاهدة الأسد ونفحات الرحمة

- النفس البشرية كالسِّبْع المفترس، إن تُركت على طبيعتها، أكلت صاحبها، وإن رُبِّيَت وأُدِّبَت، طاوعت وانقادت، لكنها لا تطاوع من أول مرة، بل تحتاج إلى مجاهدة طويلة وشاقة، لا تتوقف حتى آخر لحظة في العمر.

النفس ثلاث مراتب:

- أمارة بالسوء: إذا أُهملت، قويت، واستسلمت للشهوات والكسل.
- لوّامة: إذا بدأ الإنسان بمراقبتها ومحاسبتها.
- مطمئنة: إذا زكاها الإنسان بالمجاهدة المستمرة، وبقي عليها، لكن لا يصل إليها إلا من رحم ربي.

والنفس تمامًا كالأسد:

لو جلست بجوار أسد دون ترويض، سيفترسك.

لكن إن بدأت تدريبه بالخوف والرجاء، بالمكافأة والعقوبة، وبالمراقبة المستمرة، بدأ يلين ويتغير.

ومع الوقت، يصبح الأسد مطيعًا: "اجلس"، فيجلس. "قفز"، فيقفز.

لكن.. إن تركته دون مراقبة، عاد لطبعه الأول، وافتَرسك.

وهكذا النفس:

- كلما أهملتها، عادت للسوء.
- وكلما دفعتها للأعلى، تقدمت، لكن إن توقفت لحظة، تدحرجت إلى الأسفل.
- فلا بد من مجاهدة متواصلة، لا تعرف التوقف.
- ومن أعظم ما قالته امرأة العزيز بعد صحوة ضميرها: {إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ}

كأنها تُقرُّ بحقيقتين:

١. النفس بطبيعتها تميل للسوء، ولا يخرج منها أحد إلا برحمة من الله.

٢. الوصول للنفس المطمئنة لا يكون بكثرة العبادات فقط، ولا بجهاد النفس وحده، بل بالرحمة الإلهية وحدها.

القاعدة الذهبية التي تُؤسِّس لطريق السير إلى الله:

- {إِيَّاكَ نَعْبُدُ } - اجتهادي، محاولتي، مجاهدتي لنفسي.
- { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} - افتقاري الكامل إليك يا رب، فلا حول لي ولا قوة إلا بك.

لهذا كان النبي ﷺ يدعو:

- "اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها "
- " ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين" .

أى أن

- النفس خطر إن تُركت، وبركة إن زُكيت.
- لا تزكُ النفس إلا برحمة الله.
- الجهاد مستمر، والمراقبة دائمة، والدعاء لا ينقطع.
- كن مع نفسك كمن يروض أسدًا: بحزم، ورحمة، ودوام اتصال بالله.
- فمن جمع بين المجاهدة والاستعانة، نجا.
- ومن اعتمد على نفسه فقط، هلك.
- ومن ترك النفس على هواها، افترسته.

- " حين عرفت الله حقًا... وتكلم القلب قبل اللسان "

في نهاية القصة، نطقت امرأة العزيز بأجمل ما في السورة: { إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }

- كلمات تهز القلب، وتفتح أبواب الرجاء لكل مذنب، مهما بلغ ذنبه.
- هي لم تقلها عن لسان فقط، بل نطقت بها بعد معرفة صادقة بالله، وبعد توبة حقيقية، توبة من قلبٍ ذاق مرارة الذنب، ثم تلمّس حلاوة القرب.
- سنوات من المعصية، والظلم، والتعدي، طوتها لحظة صدق مع الله، لحظة عرفَت فيها أن الرب الذي أمهلها، لم يكن غافلًا عنها، بل كان ينتظر توبتها، لأنه غفورٌ رحيم.

الفرق بين استغفار البداية، حين قال لها زوجها: { ٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ }، واستغفار النهاية، هو الفرق بين من يعرف الله باللسان، ومن يعرفه بالقلب.

معرفة الله بأسمائه وصفاته ليست فقط علمًا، بل سلوكًا وتطبيقًا:

- من يقول "الله رزاق" ولا يسعى، لم يعرفه.
- ومن يقول "الله غفور" ويصرّ على المعصية، لم يذق رحمته.

الله يغفر لمن تاب، وآمن، وعمل صالحًا، ثم اهتدى.

وهذا ما فهمته امرأة العزيز

أخيرًا، فاستغفارها صار استغفارًا حقيقيًا:

- ندمًا، وتوبة، وإقلاعًا، وعزمًا على ألا تعود.
- ثم جاءت الآية العظيمة: { وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ }، وكأنها تقول: "أنا لست معصومة، لكنني تائبة".
- وهذا هو ميزان الله: ليس في أن لا تُذنب، بل أن تتوب بعد الذنب.
- وليس هذا خاصًا بالعصاة، بل هو حال حتى الصحابة والدعاة والعلماء.
- فعندما حضر الموت عمرو بن العاص، قال بدموع الندم: "اللهم إنك تعلم أني أحبك، وإن كنت أعصيك..."

إذًا، كلنا نخطئ.

- لكن لا تجعلوا من خطأ الداعية حُكمًا على دعوته، ولا من زلة العالم حُكمًا على علمه.
- فلو كان لا يدعو إلى الله إلا من لا يذنب، لانتهت الدعوة بموت رسول الله ﷺ.
- الدعاة ليسوا ملائكة، هم بشر يجتهدون، ويسقطون، ثم ينهضون ويواصلون الطريق.
- فالاستغفار الحقيقي يبدأ من معرفة الله والرجاء لا يُغلق بوجه أحد، والدعوة لا تقف عند زلة إنسان ، والقلوب لا تُطهّر إلا برحمة الغفور الرحيم.
- فعلِّق قلبك بالله، وقل كما قالت: { إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }
- الدعوة والإصلاح: "بين اجتهاد العلماء وتولي المناصب في أنظمة فاسدة"
- المربي الحق يجب أن يُعلّم أتباعه أهمية الاعتراف بالخطأ والافتقار إلى الله، قائلاً: " أنا شيخ وأخطئ، أدعوا لي أن يثبتني الله، ويُلهمني رشدي". هو يعلم أتباعه أن الاجتهاد في تعليم الحق لا يعني الكمال، وأنهم بشر فيهم زلات، لذلك عليهم ألا يتهموا الدعوة إذا أخطأ من يدعوهم، بل عليهم أن يفرقوا بين من يتبع الحق ومن أخطأ في التنفيذ. "الشيخ أخطأ، لكن الدين لا يخطئ".
- أما بالنسبة للملك في القصة، فقد شعر بالذهول والانبهار عندما سمع من يوسف عليه السلام. وبعد سماعه الكلمات العميقة، أصبح لديه شوق هائل لرؤية يوسف، وعندما التقى به قال: {إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} الملك لم يكن يراه فقط كحكيم أو بريء، بل أدرك أن يوسف شخص لا يُقدَّر بثمن. فقرر أن يوسف سيكون له منصب عظيم في الدولة، وليس مجرد مكرَّم أو ضيف، بل هو من سيتولى دورًا هامًا في الحكومة.

- لكن يوسف عليه السلام لم يطلب المنصب، بل الملك هو من عرضه عليه، قائلاً له: "اختر أي منصب تريده." هنا تكمن الحكمة؛ يوسف لم يكن يسعى للمكاسب الشخصية، بل كان يرى أنه لا يوجد غيره يستطيع تحمل المسؤولية في ظل الظروف الصعبة، وهو الذي يمكنه الوقوف أمام الفساد. فعندما عرض عليه منصب "خزائن الأرض" في وقت المجاعة، لم يرفضه، بل طلبه لأن هذا المنصب يتطلب شخصًا موثوقًا به، لأن المال سيكون في يد الفاسدين إن لم يُؤتمن عليه.
- يوسف عليه السلام يعلم أن الفساد يعم في المجتمع، لكنه كان يهدف إلى إصلاحه من خلال منصبه، كما أشار إلى نفسه قائلاً: { إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } وهي تذكية لنفسه، حيث يرى أنه الشخص الأنسب للمنصب. وقد يتساءل البعض عن كيفية تذكية النفس في هذا السياق، لكن الحقيقة أن يوسف لم يفعل ذلك من باب التفاخر، بل لأنه كان يعتقد أن لا أحد غيره مؤهل لتحمل هذه المسؤولية الجسيمة، وأن قبوله هذا المنصب سيعود بالنفع على الجميع ويقلل من الشر.
- ومما يلفت النظر هنا هو أن يوسف عليه السلام كان يعمل في نظام فاسد، لكنه كان في منصب لا يعين على الظلم، بل كان يسعى لإصلاح هذا الفساد وتقليل الضرر. وقد يُستفاد من هذا النموذج في حال التعيين في مناصب حكومية في دول يسود فيها الظلم، حيث يجوز للمؤمن أن يتولى منصبًا في نظام فاسد بشرط أن يكون دوره فيه إصلاحًا وتقليلًا للشر.
- وفي هذا السياق أيضًا، نجد أن المؤمنين الصادقين، مثل مؤمن آل فرعون وسيدنا موسى عليه السلام، قد شاركوا في العمل مع ظالمين لحاجة الناس إليهم، ولقد كان وجودهم في تلك المناصب فرصة لدرء الفساد والمساعدة في نشر الخير.

وبذلك، يظهر المبدأ الأساسي في القصة: النية الطيبة والإصلاح.

- يوسف عليه السلام لم يسع وراء المنصب من أجل الجاه أو السلطة، بل لتحقيق غايات نبيلة وهي الإحسان إلى الناس ومنع الفساد. كذلك، نجد أن العلماء والدعاة إذا كانوا في مواضع يُحسنون فيها العمل ويُصلحون من داخل النظام، فإن قبولهم للمناصب لا يتعارض مع مبادئهم طالما كانت نياتهم في الإصلاح وليس التمكين للفساد.
- الإنسان لا ينبغي أن يسعى للمناصب طمعًا في السلطة، بل يجب أن يرى في منصبه فرصة لخدمة الناس وتغيير واقعهم نحو الأفضل.

التزكية المطلوبة: " التوازن بين الصلاح والخبرة "

- المنصب لا ينبغي أن يُمنح فقط بناءً على التقوى والصلاح الديني، بل يتطلب أيضًا خبرة وكفاءة. في قصة يوسف عليه السلام، عندما طلب المنصب في إدارة خزائن الأرض، لم يكن طلبه فقط استنادًا إلى تقواه، بل أكد للملك أنه يمتلك الخبرة اللازمة أيضًا. فقال: { إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } ، مشيرًا إلى معرفته التامة بإدارة الأموال والمخازن. هذا يعلمنا أن المناصب لا ينبغي أن تكون محكومة بالصلاح وحده، بل يجب أن يُراعى أيضًا الخبرة والكفاءة. {}
- تُظهر القصة أنه ليس من المقبول أن يتولى شخص منصبًا لمجرد تقواه، كما في المثال الذي ذُكر عن تعيين شيخ وزير مالية فقط لأنه شيخ، أو تعيين داعية وزير صناعة وهو لا يفهم في الصناعة. من الضروري الجمع بين الصلاح الديني والخبرة العملية، فالأمين يجب أن يكون قويًا في مجاله.
- لكن في بعض الحالات، مثل حالة يوسف عليه السلام، قد تكون التزكية لنفس الشخص ضرورية إذا كانت هناك مصلحة عامة في ذلك. فكما لا بأس بأن يُزكي شخص نفسه حين يكون هناك حاجة ملحة أو مصلحة راجحة، كذلك لا يجوز التفاخر أو المباهاة بالتزكية لمجرد الفخر الشخصي.
- يُعتبر تزكية النفس في سياقات معينة، مثل تقديم سيرة ذاتية للمشاركة في منصب أو مهمة، أمرًا مشروعًا بشرط أن يكون الهدف هو خدمة المصلحة العامة وليس الفخر أو التباهي. في نفس السياق، إذا كانت هناك حاجة حقيقية لاختيار شخص معين بسبب خبرته أو كفاءته، يجوز له أن يتقدم لتولي المسؤولية، كما في حالات الإمامة أو الفتوى.
- وفي النهاية، يجب على الإنسان أن يوازن بين تزكية نفسه عندما يكون لا بديل له، وبين الاعتراف بوجود من هو أفضل في المناصب أو المهام التي لا يحتاج فيها إلى التدخل.

"رحمة الله وسبل التمكين: دروس من قصة يوسف عليه السلام"

- تتجلى فائدة عظيمة في قصة يوسف عليه السلام، حيث تؤكد أن وجود المستشارين الأتقياء الخبراء حول الحكام هو مفتاح نجاح البلاد وبناء الدولة. فالملك أُعجب بيوسف ليس فقط لصلاحه، بل أيضًا لخبرته، وهو ما يوضح الفرق بين السماع عن الشخص والسماع منه

مباشرة. كما في قول يوسف "خزائن الأرض"، نجد أن مصر كانت مليئة بالخيرات، لكنها كانت بحاجة إلى من يدير هذه الخيرات بحكمة، وهذا ما أشار إليه يوسف عليه السلام.

- ومن الفوائد البارزة هنا، تبرز الاختلاف بين ردود فعل النساء والرجال تجاه يوسف. فالنسوة تأثرن بجماله الظاهر، كما جاء في قوله تعالى: { فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } (يوسف: ٣١). بينما الملك، الذي تأثر بكلام يوسف وحكمته، أُعجب بعقله وإخلاصه أكثر من مظهره، كما ورد في قوله: { فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ } (يوسف: ٥٤). هذا يوضح الفروق النفسية بين الرجل والمرأة، حيث قد تغري المظاهر النساء في بعض الأحيان، بينما الرجال ينشغلون بالحقيقة والفكر.
- ثم جاء العوض العظيم ليوسف، بعدما مكّن الله له في الأرض، فصار يتبوأ منها حيث يشاء. كما أن هذه "الرحمة" التي نزلت عليه كانت نتيجة لإحسانه وإيمانه بالله، فتعكس كيف أن رحمة الله لا يمكن لأحد أن يمنعها، مهما كانت الظروف. وتثبت هذه القصة قاعدة عظيمة: عندما يريد الله برحمة لعبده، لا أحد يمكنه أن يوقفها.
- في النهاية، يتضح لنا أن الإحسان في علاقتنا مع الله ومع الناس هو السبيل لنزول الرحمة، وأنه إذا كان الله قد قدر لك رحمة، فكل الجهود لن تمنعها عنك.
- الآيات الكريمة من سورة الرعد والآية المتعلقة بالعوض في الآخرة تحمل دروسًا عظيمة في الصبر والإحسان. تتضح الفائدة الكبرى من قوله تعالى: { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ } ، حيث توضح أن العمل الصالح والنفع للناس هو الذي يدوم ويبقى، بينما كل ما هو غير نافع يذهب ويزول. بناءً على ذلك، لتحقيق الرحمات والاستمرارية في التأثير الإيجابي، يجب أن يكون الإنسان نافعًا ومخلصًا، دون الالتفات للآراء السلبية أو المعارك الجانبية.
- وفي حال مواجهة ظلم أو عدم تحقيق العوض في الدنيا، تأتي إجابة الله في الآية: { وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ } ، حيث يؤكد أن العدل الكامل هو مجموع ما يحدث في الدنيا والآخرة. حتى لو لم يحصل الفرد على حقه في الدنيا، فإن العوض في الآخرة يكون أعظم وأفضل له. بل ربما يتمنى من حصل على حقوقه في الدنيا أن يكون مكان من ابتُلوا، لكي ينالوا الأجر العظيم في الآخرة.

- أى أن العدل الإلهي شامل ويعطي كل إنسان حقه الكامل، سواء في الدنيا أو في الآخرة.
- القاعدة الجليلة هي أن "العدل لن يتم في الدنيا" بشكل كامل. قد يحصل بعض الناس على حقوقهم جزئيًا، ولكن ليس من الممكن أن يأخذ الجميع حقوقهم بالكامل في الدنيا. فحتى في الحديث الشريف: " لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْناء"، يؤكد أن العدل الكامل سيُحَقَّق في الآخرة. كذلك، الآية الكريمة { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ } تشير إلى أن الأجر الحقيقي سيُعطى يوم القيامة.
- لهذا، يجب أن يعلق قلب الإنسان بالله، فلا يبالِ بما يفقده في الدنيا، بل يطمئن لرحمة الله في الآخرة. إذا لم يحصل الشخص على كامل حقه في الدنيا، فليعلم أن الآخرة هي المكان الذي سيعوضه الله فيه عن كل شيء. لذا، يوجه القرآن المؤمنين إلى التعلق بالآخرة، التي هي المضمونة.
- ويُسَلط الضوء على أهمية الإيمان والتقوى، حيث يروي القرآن عن رجل مظلوم في العهد القديم، الذي قال لملك ظلمه: " ما مرَّ من بؤسي يوم، إلا مرَّ من نعيمك يوم، حتى يجمعنا الله في يوم"، ليؤكد أن العوض في الآخرة خير من كل شيء.
- أخيرًا، يُذكَر أنه لا يوجد دليل على زواج يوسف من امرأة العزيز في القرآن، وبالتالي يجب ألا نُشغل بتفاصيل غير مهمة، بل نركز على القيم الأساسية مثل الإيمان، الإحسان، والتعلق بالآخرة.
- العدل الكامل سيُحقق في الآخرة، والإنسان يجب أن يعلق قلبه بما هو أكيد، لا بما هو محتمل في الدنيا.